التفكر عبادة

يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ [ق: ٦]. ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]. ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

ألم يقرع سمعَك قوله: ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

إنَّ حشدَ هذه النصوص وأشباهها في كتاب الله ليس حشوا كالذي تراه في مناهج التعليم، ولا تحصيلَ حاصل، وإنما هذا أمر يَنُم عن خطر عبادة التفكر وعظيم شأنها، تلك العبادة التي تكاد تكون مهجورة في زماننا.

فترى الرجل كثير الصلاة، كثير الأذكار، كثير الصدقة والصوم والاعتمار، لكنه على امتداد عمره، قلما سَرَّح ناظريه في خلق الله مُتفكرًا مُعتبرًا.

والتفكر وصيةُ رسول الله ﷺ فقد قال بأبي هو وأمي ونفسي: «**تفكروا في خلق الله**» حسّنه الألباني في «صحيح الجامع».

وكان كثير من سلفنا الصالح رضي الله عنهم يُفَضِّلُون التفكرَ على نوافل العبادات.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «تَفكُر ساعة خير من قِيام ليلة».

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «التَّفكر في نِعم الله أفضل العبادة».

وقال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيتُ لله فيه نعمة ولي فيه عبرة».

أنْعَمَ الله على عباده بالنِعم ليعرفوه بها: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]. والتَّفكر من خصائص الإنسان التي يتميزُ بها عن العجماوات وقد شَنَّع سبحانه على أولئك الذين عَطَّلوا عقولهم وبصائرَهم فلم يستدلوا بها على مولاهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد ابتُلي الناسُ إلا ما رحم ربيَ في عصرنا هذا بنُدرة التَّفكر أو ضعفه بسبب الانفتاح على الدنيا والطُغيان المادي المُعاصر، فصارت الدنيا الفانية شغلَهم الشاغل، وتَبَلَّدَ الإحساسُ تجاه آيات الله المُبهرة على نحو مُريب، ولعل من أسبابي هذا أيضًا الإغراق في المعاصي، فمن عقوبات المعاصي أنها تُعمي القلوب. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وها هو القرءان يُعَرِّفُنا بربنا، يُخاطِب عُقُولنا، ويدعوها للنظر، فهو يخاطب العقل، ويُوقِظ الفِطْرَة، ويَحْشد الأدلة، ويتحدى الكافرين، ويعالج الوساوس، ويلفِتُنا إلى نِعم الله التي لا تُعدّ ولا تُحصَى.

«**إخوتاه**» كم هي الآيات العظيمة التي نُشاهدها في الآفاق، تتجلى عظمة الله فيها! ولكن تكرار ذلك أمام الحِس والنظر جعلها مألوفة، آهٍ لو ألقَيت أخي عن عقلك البلادة وإلف العادة، ساعتها تستقبل مشاهد الكون بإحساس حيٍّ مُتَجَدد، فتُزَلزِل كِيانك تلك الأعاجيب.

إننا نحتاج وبِشِدّة إلى أن ننظر إلى كل شيء بعين الاعتبار، وأنْ نُحاول إدراك حكمة الله فيه؛ إذ ما خَلَقَ الله شيئًا في العالم إلا وله فيه حكمة جَلِيَّة أو خفيَّة.

إنَّ نظرك إلى نعم الله تعالى بمثابة وَقود إيماني يدفعك إلى مزيد من الشكر، فالقلوب مَجبولة على حب مَن أَحْسَنَ إليها؛ ولِذا كَثُر في القرءان سَوْقُ آيات النِعم والخَلق والفضل تنبيهًا لهذا المعنى، وكُلما ازددتَ علمًا بِنعم الله عليك ازددتَ شَوقًا لشُكره على نَعمائه وآلائِه.

والبعض سَفِيه لا يعرف مِن نِعم الله تعالى عليه إلا نعمة الأكل وقد عَلِمَتْ البهيمة أنها تجوع فتأكل، وتتعب فتنام، وتشتهي فتُجامِع، فتَعْسًا لعبد لم يعرِف مِن نفسِه إلا ما يعرف الحمار! فكيف يقوم هذا بِشُكْر مولاه ولا يُتصور شكر النعم إلا بعد مَعْرِفَتها، لذا فالجهل والغفلة قَصَّرا بالعباد عن شكر مولاهم.

مولاي

إنْ لم تكُن عيني تراكَ فإنّني ... في كُل شيءٍ أَستبينُ عُلاكَا

اعلم أيها العبد أنّ كل ما في الوجود ممّا سِوى الله فهو فِعل الله وخلقه، وإحصاء تلك الآيات غيرُ مُمكِن، إنّ هذا الكون بحق كتابٌ مفتوح يُقرأ بِكُل لغةٍ ويُدرَك بِكُل وسيلة.

تأمل سطورَ الكائنات فإنها ... مِن الملأ الأعلى إليكَ رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأملتَ ... ألا كَل شيء خلا الله باطلُ
تُشيرُ بإثبات الكَمالِ لربِها ... فصامِتُها يهدي وما هو قائلُ

بربك ألم تُبْهِرك زُرقةَ البحر، وصفاءُ السماء، وبراءةُ الأطفال، ورَوعة الغروب، وحُمرةُ الشَفَق؟!

تكفيك نظرة إلى جناح فراشة أو رأس هُدْهُد، أو شِق رُمَّانة، إذا أردت أن تستشعر عظمة الله أكثر فتأمّل بَديع مخلوقاته من حَوْلك مِن الذرَّة إلى المجرَّة، ومِن النَّملة إلى الحوت.

انظر إلى: الوحوش الهائِمَة، والطيور الحائِمَة، والحيتان العائِمَة.

انظر إلى: النار تحرِق والماء يُغرِق.

انظر إلى: السُم يُصنَع منه الدواء، والهواء يَعصِف فيُدمّر الأشياء، ويَقْتُل الأحياء وينقِل الوباء، أو يكون عاصفة هَوْجَاء.

هذا مخلوق بِنَابِه يَصُول، وذاك بمِخْلبه يَجول، وثالث بِمنقارِه يُناضِل وآخر بِرِيشِه يُقَاتِل.

انظر إلى: البشر بين عاقلٍ حصيف، وطائش خفيف.

انظر إلى: الحر يَكَاد يُذيبُ الحديد، وإلى البرد يُحوِل الماءَ إلى جليد.

تأمل مطلعَ الشمس ومغيبها.

لحظة **تأمل** في الظل الممدود، ينقص بلطف أو يزيد.

نظرة تأمل إلى العين الفوارة والزهرة المتفتحة والحصيد الهشيم.

ولله في كـــل تحريكـــة وفي كـل تـسكينة شـاهدُ
وفي كـــل شيءٍ لـــه آيـــةٌ تـدل عـلى أنـه الواحـدُ

بث الله الآيات في الأرض للموقنين..فأينما وليت وجهك رأيتها.

لله في الآفـاق آيـات لعـل أقلهـا هـو مـا إليـه هـداك
والكـون مـشحون بـأسرار إذا حاولت تفسيرًا لها أعياك
يا أيها الإنسانُ مهـلًا مـا الـذ ي بالله جـل جلالـه أغـراك

فكن ذا عينٍ لماحة، ودرب نفسك حتى تكتسب مَلَكة التدبر.

طبيبٌ يدرس الطب في أمريكا، يتعين ويعمل في الخليج، يأتيه مريض من الهند، يصف له دواءً صُنع في الصين.

كيف يتم هذا لو لم تكن بنيةُ الإنسان واحدة؟

ولو جعل الله لكل إنسان بنية تشريحية خاصة به وحده لما نفع الطب ولما كان طبٌ من الأساس، لكن الطبيب يضع مبضعه على الجلد وهو يعلم أنه سيجد الشريان الفلاني في مكان كذا تحديدًا بالملليمتر .. أليس هذا دليلًا على أن خالق الخلق واحد.

دلالة الصنعة على الصانع

قديمًا قالها الأعرابي البسيط: «إن البعر يدل على البعير، وأثر الخطأ يدل على المسير، سماوات ذات أبراج، وبحار ذات أمواج وصحاري ذات فجاج أفلا يدل كل هذا على اللطيف الخبير؟!».

اعلم أُخيَّ أنه لا شيء أدل على شيءٍ من دلالة المخلوقات على عظمة وقدرة خالقها؛ فالعلاقة بين الصانع والمصنوع وثيقة جدًا، وبالنظر إلى المصنوع تستدل على بعض صفات الصانع، إنك إن رأيت سيارة قَطعتَ بأن صانعها موجود، وجزمت بأنه ماهر ذكي، وأنه عاقل غير مجنون، وأنه يمتلك حديدًا وزجاجًا وأسلاكًا ومطاطًا، وأنه قادر على تشكيل الحديد والزجاج على نحو ما ترى، وأنه عالم بالفيزياء والكيمياء والكهرباء والدهانات، وبأن لديه ذوق ولمسة جمال.

إنك لم تلتق بمصمم الطائرة قط، ولم تطلع على شهاداته، لكنك تشهد له بالخبرة والعلم. فلله المثل الأعلى ألا تدلك مخلوقاته على علمه وخبرته، وقوته ورحمته، وجماله ولطفه، وحكمته وقيوميته.

إنك حين تقرأ اسم فلان من الناس مسبوقًا بحرف الدال، فتستدل بحرف واحد على أن هذا الشخص درس وتعلم، وحصل الابتدائية والإعدادية والثانوية، وتخرج في الجامعة، وأحرز الليسانس أو البكالوريوس، وأتبعه بدبلوم عام ثم خاص، ماجستير، دكتوراه.. ناقش مجموعة من العلماء وأجازوه.. قدم بحثًا لم يُسبق إليه واعتبرته الجامعة وصار معتمدًا.

كل هذا استنتجته من حرف الدال فقط، بل ترى مسمارًا دُق في حائط فتجزم أن لفاعل ذلك حكمة.

من العجيب أنك تدخل بيت غنيٍ مزخرف فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره، يقف الناس أمام الأهرامات مشدوهين.. يتعجبون.. وتسمع العبارات تنم عن انبهار.

تحفة معمارية، من أين جاءوا بالصخور؟ كيف حملوها؟ كيف أحكموا تقطيعها؟ كيف علوا بها إلى هذا الارتفاع؟ كيف يمسك الحجر الحجر، انظر إلى السراديب..تأمل التهوية، نفس الإعجاب ستراه في المعرض الدولي للفنان العالمي؟ فإن كان الحال كذلك لم التبلد تجاه خلق الله؟ مالك تقف أمام آياته باردًا.

إن الإنسان ما صنع شيئًا إلا على مثال سابق أما الله فهو البديعُ سبحانه، يخلق ما يشاء على غير مثال سابق، صنعُ الإنسان قاصر، لأن علمه مخلوق ناقص، يبنى الكباري فتنهار لتمدد الحديد صيفًا، فيتلافى هذا ويقدر فراغات للتمدد، يصنع شاحنات لنقل وقود الطائرات فتنفجر بفعل حرارة الشمس، فيتعلم ويصنع عازل للحرارة ومبردات، فهو إذن يجرب، يصيب مرة ويخطئ مرات.

انظر إلى عيوب وسذاجة مصنوعاته، قارن بين السيارة التي صنعت ١٩١٠ بأحد المتاحف وبين سيارة اليوم، فالأولى تدور بمنفلة من الأمام، وتضئ بفَانُوس يُشعل، والبوق يعمل بالنفخ، والإطارات ليس بها هواء، والمحرك حركة واحدة.

فأين هذه مما يسمونها اليوم «فول أوبشن» الفرق هائل لا يكاد يُصَدق. لأن خبرة الإنسان تتنامى.

إن أول جهاز كمبيوتر اخترعه الإنسان كان في عام ١٩٤٦ وزنة ٦٠ ألف رطل كان يشغل مساحة فسيحة، الآن مثل هذه الأجهزة يُحمل اليوم على هيئة حقيبة صغيرة.

يصنع التلفاز الأبيض وأسود ثم يحتاج لـ ٢٠ سنة تتنامى خبراته وإمكاناته فيتطور ليصنع تلفازًا بصورة ملونة.

أما صنعة الله الخبير العليم فليست كذلك..

هل سمعت بربك أن إنسانًا كان في الأربعينات بشكل وخلقة ثم تعدل في الستينات، أو أضيفت له تعديلات وتطور في التسعينات؟ إن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأتقن صنع كل شيء فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه ولعظيم سلطانه.

ذكر جملة من ثمرات التفكر

إن نبي الله موسى لما سئل عن ربه: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طٰهٰ: ٥٠]. فأنعم بها من إجابة! وما أروعه من تعريف!

وأنت كلما طالعت عجائب المخلوقات كانت معرفتك بجلال الخالق أتم، وإذا بنفسك لطاعته أرغب، وصدرك للإيمان أرحب، وقلبك إليه أقرب، فإن عظَّمتَ الآمِر عَظمتَ الأوامر.

قال بشر: «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه».

إن الموفقين لما أعملوا عقولهم فيما خلقت من أجله، وتفكروا في آيات الله الدالة عليه، ازدادوا بهذا التفكر معرفة بربهم ويقينًا به ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ وانعكس ذلك على عبوديتهم ومعاملتهم لله، فازدادوا له تعظيمًا وخشية ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وأنت أيضًا أخي على قدر معرفتك بالله تخشاه فتدأب في طاعته وتجتهد في مراضيه، وتُفكر ألف ألف مرة قبل أن تعصيه، ولا شك أن اجتراء العصاة على معاصي الله ناتج عن ضعف وقلة معرفتهم به سبحانه فجعلوه أهون الناظرين إليهم ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ وقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

قال أبو سليمان الواسطي: «ذكر النعم يورث الحب لله عز وجل» وصدق رحمه الله فالمحبة على حافة النعم، جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، ومشاعر الحب داخل الإنسان تتوجه لمن يعطيه ويحسن إليه، وكلما ازداد العطاء ازداد الحب، لا سيما إن كان العطاء بلا مقابل، فالإنسان أسير الإحسان، انظر: كيف تبدلت مشاعر صفوان بن أمية تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من البغض والعداوة إلى الحب والموالاة، تبدلت مشاعره تمامًا بسبب عطائه المتواصل له فإن كان الأمر كذلك فكيف حالك مع الله الذي أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم.

إذا القلوبُ خلت من حُبِ خالقِها ... فَهي الصُخورُ تَحتلُ أَبدانًا

إذا خلا المرءُ من شَوقٍ ومعرفةٍ ظلمتَ نفسكَ لو تدعوه إنسانًا

وخشية الله وحبه من أعظم الدوافع لعبادته، فالأم تسهر من أجل وليدها، وتضحي براحتها ونومها، وما ذلك إلا لشدة حبها له، والمريض سيتجرع دواءً مرًا حبًا للعافية وكرهًا للمرض، والطالب يذاكر حبًا للنجاح، والعبد كلما كان محبًا لله كان أنشط في عبادته وأسرع إلى طاعته، ولما كان رسول الله ﷺ أعلم الناس به كان أشدهم حبًا له وأتقاهم وأعبدهم له.

والمتدبر لكتاب الله يجده كثيرًا ما يُذكر الناس بنعم الله، ثم يردف ذلك بالأمر بشكرها، ففي تذكيرهم بنعم ربهم ترقيقًا لقلوبهم، وإثارة لإيمانهم، وبعثًا وإيقاظًا للمحبة الكامنة، ومن ثم تسهل عليهم وظائف العبودية، ها هو نبي الله هود عليه السلام يذكر عادًا بنعم الله عليهم فيقول: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، ثم يأتي التكليف بعد ذلك مباشرة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١].

وتأمل أخي قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]. ثم يأتي التكليف بعدها ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله لها وتطهيرها كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها.

ومثله ما وقع للنبي ﷺ إذْ مَنَّ الله عليه فقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. ثم أتبع التشريف بالتكليف فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ وعدد عليه نعمه فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤]. ثم ختم السورة بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧-٨]، نفس الأمر تراه في سورة الضحى، يُذكر الله نبيه ﷺ ببعض نعمه عليه ثم يعقب ذلك بالأمر والنهي ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

[الضحى: ٥-١١]

ولو تتبعت هذا في القرءان لرأيته كثيرًا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣-٤]، ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فإن كان التفكر يورث خشية الله ومحبته على نحو ما رأينا فهو سبب الفلاح والنجاة بإذن الله، وكم من ملحد استعمل نعمة العقل فهداه الله؛ فأسلم لمَّا تفكر، والمتفكر في عظمة الله ونعمه يستشعر شديد تقصيره في حق الله تعالى، فتراه أبعد ما يكون عن العجب ورؤية النفس والعمل.

ولا يفوتني أن أذكر أن كل الاختراعات التي نراها هي ثمرة من ثمرات التفكر، فالإنسان ما صنع الغواصة إلا بتفكره في خلق الله للسمكة، واستوحى الطائرة من الطائر والكاميرا من العين.. وهَلُمَّ جَرًّا.

والآن.. هل تسمح لي أيها القارئ الكريم أن أصحبك في جولة سريعة نطالع فيها شيئًا من نعم الله وآلائه علينا عساها تكون وقودًا إيمانيًا نتزود به في سلوكنا إلى الله؟

أيها السعيد بالإسلام

ألا ترى نعمة الله عليك في أن جعلك مسلمًا؟

حررك من العبودية للمخلوقين وجعلك عبدًا لله وحده، نهاك أن تسجد أو أن تذل لسواه، نهاك أن تحلف بمخلوق أو أن تصرف عبادتك لمقبور أو أي طاغوت جعلك من خير أمه أخرجت للناس، نهاك عن إتيان السحرة والكُهَّان الذين يعبثون بعقائد وعقول البشر.

ألا تحب الله الذي أرسل إليك خير رسله محمد ﷺ وأنزل عليه القرءان العظيم؟ رضي لك الإسلام دينًا، حبب إليك الإيمان وزَيَّنَهُ في قلبك، وكرَّه إليك الكفر والفُسوق والعِصيَان.

أيها المسلم.... أنت مُدلل بأحكام هذه الشريعة!

فالشرع حرَّم دمكَ ومالكَ وعرضك على الناس، جعل سبابك فسوقًا وقتالك كفرًا، حَرَّم أن يُشارَ إليك بحديدة أو أن تُروَّع وأنت الآمن، حَرَّم أن يباعَ على بيعك أو أن يُشتَرى على شرائك، أو أن تُخطب مخطوبتك،

وجعلك قيمًا على زوجتك، وُحَرَّم عليها صيام النفل وأنت شاهد إلا بإذنك، وسخط عليها إن هي منعتك حقك، حرَّم على ابنتك أن تتزوج إلا بإذنك ورضاك، حرَّم على جيرانك أن يؤذوك، وعلى أولادك أن يعقّوك، وعلى التجار أن يغشوك أمر الناس بالتواضع وخفض الجناح لك، ولين الكلام معك، وبإكرامك إن نزلت عليهم ضيفًا، وبتشميتك إن عَطست فحمدت قالوا: (يرحمك الله)، وجعل تبسمهم في وجهك صدقة وعبادة.

شرع القرض لتفريج كرباتك، ورغب الناس في زيارتك إن مرضت، ووعد عليها بالأجر العظيم، جعل دية أصبع منك عشرة من الإبل، وأمر الدولة الإسلامية أن تفتديك بكل ما تقدر عليه إن أسرك العدو، فإن مت أمر بتغسيلك وتكفينك ودفنك سترة لك وكرامة، ورغب الناس في الصلاة عليك واتباع جنازتك، وأمر بالإحسان إلى أولادك اليتامى فكافلهم مع رسول الله ﷺ في الجنة كهاتين.

ذبت حياءً منك مولاي

شرعت لنا الجهاد ولولاه لداهم العدو ديارنا فأفسد البلاد والعباد، شرعت لنا الزواج والتعدد، شرعت لنا القصاص، ولنا فيه حياة، شرعت لنا الاستخارة نستخيرك في أمورنا، شرعت لنا العيد نفرح ويعلم أعداؤنا أن في ديننا فُسحة، شوقتنا إلى الجنة، خوفتنا من النار، شرعت الهدية لإدخال السرور وتوطيد المحبة، شرعت إفشاء السلام وإطعام الطعام، أمرتنا بصلاة الجماعة ولولا وجوبها لما لاق بأمثالنا أن يدخل بيوت الله، أذنت لنا بذكرك ولم تُوجِب علينا غسل ألسنتنا (ألف مرة) قبل ذكرك.

ألا تحبه...

رفع عنك الخطأ والنسيان وما استكرهت عليه، خفف عليك الصلاة من خمسين إلى خمس، ورخص لك في الجمع والقصر أحيانًا، وأجاز لك الصلاة قاعدًا، بل ومضطجعًا إن كنت معذور تيسيرًا عليك ورفعًا للحرج.

أسقط عنك الحج إن لم تستطع إليه سبيلًا، ورخص لك في إفطار رمضان إن كنت من أهل الأعذار مع القضاء أو الفدية، هوّن عليك الصيام فقال: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة:١٨٤].

فتح باب التوبة ليل نهار، يبسط يده، فهل من عودة؟

لم يعاجلك بالعقوبة بل أمهلك لتتوب..﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس:٦٧].

جعل الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، أعطاك ليلة القدر خير من ألف شهر، شرع لك الدعاء تناجيه شرع لك سنة الفجر خير من الدنيا وما فيها، جعل ركعتي الضحى كإخراج ٣٦٠ صدقة، أعطاك على قولك «سبحان الله وبحمده» نخلة في الجنة، حصنك بالأذكار فلا يقربك شيطان، أعطاك بكل حرف في القرءان تتلوه ١٠ حسنات، إن دللت على خير أعطاك مثل أجر فاعله، وعدك بيتًا في الجنة مقابل اثنتي عشر ركعة من غير الفريضة.

نهى الناس عن سوء الظن بك أو خيانتك أو حسدك أو الشماتة بك، وحرم عليهم احتقارك، والطعن في نسبك، والغدر بك، وهجرك فوق ثلاث، نهى عن التغوط في الطريق التي تسلكها.

«**لمصلحتك**».....

- حرَّم عليك تناول السم، والخمر المفسدة، وتعاطي الزنا المدمر.
- حرَّم عليك الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والنجاسات، والخبائث.
- حرَّم عليك الربا، فأنت لا تقوى على حرب الله.

تأمل نسبة المحرمات من الطعام والشراب والنساء والمعاملات فإذا هي لا تذكر في جانب الحلال الطيب المباح.

أمرك بكل معروف ونهاك عن كل منكر.

«**هنيئًا لك إسلامك**»...

سافر رجل إلى بلاد الهند ونزل في أحد الفنادق، ثم استيقظ مبكرًا على جلبة وضجيج، فسأل عن السبب فعرف أن هناك جنازة لرجل مات، لكنه لما نظر رأى نعشين، وفي الثاني امرأة مُسَجَّاة على خشب تضطرب وتتحرك فسأل مُندهشًا عن هذا!! فقالوا: «إنها زوجته ويجب أن تُدفن وتُحرق معه» هكذا يأمرهم دينهم، أما إن ماتت الزوجة فهو يتزوج غيرها. فهل هذا دين؟!! قل الحمد لله على نعمة الإسلام.

يقسم لي بالله أحد إخواني وكان مسافرًا للخليج أنه فتح باب غرفة السكن يومًا فوجد عاملًا هنديًا يسجد لـ «علبة البيفي» وعليها صورة البقرة!!.

هل استشعرت العزة التي أنت فيها أيها المسلم بانتمائك لهذا الدين العظيم، وليس هذا البحث مجال لعرض سخافات الملل الأخرى والأديان المحرفة وإلا لطال المقام بي.

فهؤلاء يسجدوا للفئران، وآخرون يعبدون الصلبان والأوثان، وهذا يتاجر في صكوك الغفران، والحمد لله على العافية.

إن الله عز وجل أنعم عليك أيها المسلم بنعمة العقيدة الصحيحة السليمة، أما غيركَ أيها الموحد ففي ضلالاتهم يترددون، وفي ظلماتهم يتخبطون ويتحيرون، وقرآنك يزيد على ٦٠٠٠ آية يستحيل ثم يستحيل ثم يستحيل أن تجد فيه معلومة غير صحيحة أو حرفًا يخالف الحق: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾، كم من إنسان اعتقد عقيدة وآمن بنظرية ثم تبين له بطلانها وفسادها، فأصيب بحسرة وخيبة دمرت كيانه! أما المسلم فينعم بأمان عقائدي عجيب لا مثيل له، إذ ليس في كتابنا حرف يُنْقَضْ فما من حدث يمر في الكون إلا وتراه مؤكدًا لما فيه.

«قل الحمد لله»...

أعطاك الإسلام وجعلك على السنة، فلستَ شيعيًا تعبد الحسين والعباس، ولست صُوفيًا تعبد القبور والأولياء، ولستَ عقلانيًا تقدس

العقل وتُقَدِمه على نصوص الوحي الشريف، ولست من الخوارج تكفر الناس بهواك.

اسمك، محمد أو أحمد أو عَلِي، وليس اسمك جرجس أو بطرس أو عبد المسيح!!!.

اسمك فاطمة أو خديجة وليس دميانة أو راشيل أو إيفون أو ماتلدا.

فيالها من نعمة ومنة، أن جعلك مسلمًا: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[الحجرات:١٧]

ومن نعمه عليك أنك أدركت صَاحِبَ سُنَّة يحملك عليها، ونحن في زمن الغربة.

ومن نعمه عليك أن لك إخوان صدق صالحين، في الله أحبوك، إن غبت عنهم تفقدوك، وإن غفلت ذكروك، وإن هممت بخير أعانوك، وإن دعوا لأنفسهم ما تركوك.

ومن نعمه عليك أن الله مد في أجلك يومًا جديدًا، فاستحضر أن الله يستعتبك عساك تتوب وتقبل عليه، وكان النبي إذا استيقظ حمد الله على أن رد إليه روحه وعافاه في جسده وأذن له بِذِكرِهِ.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه لما أخبرته جاريته بطلوع الشمس: «الحمد لله الذي وهب لنا هذا اليوم».. وإلا فكل يوم يعيشه المؤمن غنيمة.

فاحذر يا عبد الله أن يكون عمرك حجة عليك، واعلم أن الكفار يطلبون الخروج من النار لعمل الصالحات فيكون الجواب: (أولم نعمركم)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فَاطِر: ٣٧].

إنهم يصرخون ويتصارخون ويستغيثون ويقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾، فاعترفوا بذنوبهم وعرفوا أن الله عَدَلَ فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها فيقال لهم: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾ أي: دهرًا وعمرًا لمن أراد العمل، متعناكم في الدنيا، وأدررنا عليكم الأرزاق، وقيضنا لكم أسباب الرَّاحة، وأمددناكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء لتنيبوا إلينا، حتى إذا انقضت آجالكم، وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشر الحالات، ووصلتم إلى دار الجزاء سألتم الرجعة؟ هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النيران، ونسيكم أهل الجنان، فامكثوا في العذاب خالدين.

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا فمنهم من قال: «٦٠ سنة» ومنهم قال: «٤٠ سنة» وقيل: «٢٠ سنة» وقيل: «١٧ سنة».

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر بطول العمر، قد نزلت ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة».

ومن نعم الله عليك إنه أخفى عليك ميعاد موتك، نعم إن جهلك بأجلك نعمة عظيمة ولو عرف الإنسان أجله لتنغص بذلك وطال غمه، ولو أطلعك الله على ضمائر الناس لطال ألمك وحقدك، ومن نعم الله عليك أنه أخفى ليلة القدر وساعة الجمعة.

ومن نعم الله الصحة والفراغ قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**» رواه البخاري.

ومن نعم الله عليك الشهوة... تشتهي الطعام فتأكل، وها هو المريض ينظر للطعام فلا يشتهيه، من نعم الله عليك أنك تشبع لتترك الطعام وإلا هلكت نفسك بالإسراف فيه.

بل قد يكون من نعم الله على العبد أنه أفقره، ففي فقره صلاحه وحجبه عن الطغيان: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

نفسك يا عبد الله أقرب شيء إليك، وفيها من الآيات ما تنقضي الأعمار بالوقوف على بعضه، وما من عضو من أعضائك إلا وفيه خارقة تحير الألباب. ولو وقفت متأملًا في نفسك ستدهش وتهتف سبحانك خالقي.

«أخي الحبيب» اعلم أنه لا يشبهك أحد في هذه الدنيا، ببصمة إبهامك، بنبرة صوتك، بقزحية عينك، برائحة جلدك، وغيرها من الأشياء التي لا تتطابق مع صفات ستة آلاف مليون إنسان يعيشون على هذا الكوكب.

«أيها العبد» من اللافت للانتباه أن الله خلقك بطريقة تتناسب مع حقيقتك كعبد؛ حتى لا تجد صعوبة في ارتداء رداء العبودية، لم يجعل أصلك ذهبًا ولا فضة ولكنه التراب أخس الأشياء. ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ ولو نظرت إلى المني أو شممته لعافته نفسك ولتقززت هذا أصلك ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾.

فابن التراب ليس له أن يتكبر لاسيما على خالقه تبارك وتعالى لو كان الإنسان أطول من الأشجار والجبال لربما كان هذا مدعاة إلى علوه وتكبره، ولكن الأمر ليس كذلك ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

يا عبد الله!! كم أنت صغير الحجم جدًا، فأنت وملايين البشر لا تعدلون حجم سلسلة جبال واحدة على ظهر هذا الكوكب الذي هو كنقطة في هذا الكون العظيم ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧]. ثم أنت مع ذلك ضعيف شديد الضعف ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٧]. فالضعف لك صفة أصيلة أما

القوة فعليك طارئة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

اعرف نفسك

إنك لا تتحمل الجوع ولا العطش ولا الألم، بل لا تُقاوم النوم طويلًا، تيار من الهواء يُخِلِّفُكَ طريح الفراش أيامًا، سمعك محدود، بصرك محدود، بطشك محدود، لا يسعك أن تحمي نفسك من هجمةِ سبع، أو لدغةِ حشرة.

من أنت؟ الصِنانُ في أُذنيك، والمُخاط في أنفك، الدم في عروقك، البول في مثانتك، العذرة في أمعائك، البُصاق في فمك.

من أنت؟ الطاووس أجمل ألوانًا منكَ، الفيل أكبر منك، الفرس أسرع منك، أيها المسكين تقتلك شرقة، وتؤذيك بقة.

وقفة تأمل

تأمل يا عبد الله في نعم الله الباطنة والظاهرة عليك ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ وتأمل لو حُرمتَ نعمة واحدة كم يكون خسرانك وشقاؤك؟ فكيف حالك لو حرمت عددًا منها؟، ولو قُدِمتْ لك النعم المسلوبة بأبهظ الأثمان، أكنت تتردد في تقديم أغلى الأثمان للحصول عليها مرة ثانية كنعمة السمع أو البصر أو العقل أو الصحة؟.

الله الكريم! وهبك كل تلك النعم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد و لك الشكر**» وفي المساء يقول: «**ما أمسى بي**» رواه أبي داود وحسّنه العلامة ابن باز في «التحفة».

وأنعَمَ عليك سبحانه بنعمة الهداية، فاشكُرها وانظر إلى حياة الضالين المتخبطين الخاسرين، وسل الله أن يُنعم عليك برضاه والجنة.

هيا بنا نتفكر ساعة

من الذي أوجدك من عدم؟ عمرك الآن لو افترضناه ثلاثين سنة أين كنت منذ ٣١ سنة؟ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، كنت ترابًا فسواك بشرًا سويًا.

إنه الوهاب الذي وهبك الحياة ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾، أنت ما خلقت نفسك بل أنت لا تعرف عدد خلايا جسمك، ماذا لو وُلدت منذ عدة قرون؟ تخيل صعوبة الحياة، لا كهرباء، لا سيارات، لا وسائل اتصال، لا عمليات جراحية، لا دورات مياه في البيوت، أتدري حجم الصعوبات التي كنت ستواجهها لتبتعد عن مساكن الناس في ليالي الشتاء لتقضي حاجتك؟

تخيل أنك وُلدت بالإسكيمو أو في الأدغال؟

تخيل أنك وُلدت لأبوين يهوديين أو نصرانيين أو بوذيين أو شيوعيين ملحدين، هل كنت ستختار الإسلام وتستجيب للفطرة؟ أم ستوافق

الأغلبية؟ امتحان رهيب عصمك الله منه بأن خلقك لأبوين مسلمين، أليس كذلك؟

أليس من نعمة الله عليك أن خلقك تفهم اللسان العربي، فتفهم القرءان وبه تتأثر، أليس على الصيني والهندي والأمريكي، والألماني، والفرنسي، وغيرهم أن يبذلوا جهدًا كبيرًا ليفهموا كتاب الله.

حبب إليك الإيمان، وشرح له صدرك، وأوحى إليك فعل الخيرات وترك المنكرات، سترك ولم يفضحك، نشر الجميل، وستر القبيح.

كم من آلاف الأمراض في الدنيا عافاك منها؟ ألم تفكر يومًا كيف تلتئم جروحُك، من الذي يحفظك نائمًا يقظانًا، من الذي يرد عليك روحك بعد النوم.

أيها المُدَلَّل

- هل رَفَضَ الماءُ مرة إرواءك؟
- هل أبى الطعام يومًا إشباعك؟
- هل رَفَضَت الدواب حملك وحمل متاعك؟
- هل امتنعت الشمس يومًا عن الإشراق؟
- هل امتنعت النار عن الإحراق؟
- هل استشعرت أن الكون مُسخر لك لتعبد الله؟
- هل أمسكت قَلَمًا يومًا لتكتب به بعض نعم الله؟

أيها الغافل عن نفسك الجاهل بها..

كل ذرة في جسمك نعمة، كل شعرة في بدنك نعمة، كل عضلة في جسدك نعمة، أمدك بإبصار العين، وبسمع الأذن، وبجريان الدم، وبتردد النفس، وبحركة المفاصل.

«**فلولا الله**» ما دَقَّ قلبٌ، ولا رَأتْ عينان، ولا سمعت أذنان، ولا نطق لسان، ولا مشت رجلان، ولا بطشت يدان، ولا تنفست رئتان، ولا هضمت معدة، ولا أفرزت غدة، ولا...ولا...

نعم تفكر في هذا النعيم الذي تتقلب فيه وأنت لا تدري.... صحةٌ في بدن، وأمن في وطن، غذاء وكساء، هواءٌ وماءٌ تمشي على قدميك وقد بُترت أقدام، تملأ بطنك طعامًا شهيًا وماء باردًا وتنام ملء جفنيك وربما أطار الألم نوم أقوام.

أمدك بالأرزاق المختلفة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴾، هو الذي علمك ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وإلا فقد خرجتَ من بطن أمك لا تعلم شيئًا.

يحفظك من الحيات والعقارب، من الحوادث والكوارث، من الخسف والزلازل، من الجفاف والوباء، لا يؤده حفظ السماوات والأرض أيؤده حفظك أنت؟!.

أنعم عليك بزوجة طيبة صالحة، تسكن إليها نفسك.. لا تَخونك أليست نعمة؟.

أنعم عليك بنعمة الحرية فلست أسيرًا مقيدًا محبوسًا.

أنعم عليك بنعمة الأمن والأمان، وبنعمة المأوى والسكن، وبنعمة اللباس والزينة، وبنعمة العمل والوظيفة.

وأَعظم من هذا كلهِ نعمة القرءان، ونعمة الصحابة، إننا نحمد الله أن أَيَّدَ نبيه بهؤلاء الأفذاذ الربانيين الذين بذلوا أرواحهم لإعلاء ونشر هذا الدين.

نعمة المساجد، نعمة المصاحف، نعمة وجود العلماء الربانيين والدعاة المخلصين، نعمة الأشرطة والكتب، نعمة الشبكة العنكبوتية لمن يتق الله في استعمالها، نعمة أنك تضغط زر التلفاز فترى العلامة الحويني، أو القدوة العالم العامل فضيلة الشيخ/ أحمد فريد، أو الرباني/ يعقوب، أو سماحة شيخنا المحسن/ محمد حسان، وغيرهم من مشاعل الهداية وأعلام صحوتنا السلفية المباركة.

صنع الله الذي أتقن كل شيء

من الذي زين فمك بالأسنان كالدر المنظوم، وجعل فيها المنافع العجيبة؟ من الذي قوس حاجبيك وأحسن خطهما، وأبدع عينيك الرائعتين؟ من الذي أعطاك يدين تصلان إلى جميع بدنك، وركب فيهما الأصابع، وجعل على رؤوس الأصابع أظافر تلتقط أدق الأشياء، فالظفرُ الذي هو أحقر الأشياء لو عَدِمتَهُ ثم أصابتك حكة لم يَقُمْ مقامهُ شيء في حك بدنك؟ ألم تر إلى النائم تلدغه البعوضة فيتوجه ظفره مباشرة إلى

مكان لدغتها تحديدًا فيحكه والمدوغ مستغرق في سُبَات عميق؟ ولو جعل الله بالأظافر إحساسًا لما استطاع أحدٌ قَصَّ أظافره!!

من الذي نوَّع الحناجر فتختلف الأصوات الصادرة عنها، من الذي ركب لك الإبهام في مقابلة سائر الأصابع؟ فلولاه لما استطعت أن تأكل أو تكتب أو تخيط ثوبًا لأنك ستعجز عن الإمساك بقلم أو ملعقة أو مطرقة، من الذي يضمن لك ألا تخرج عينك من محجرها وأنت تعطس عطسة تقدر سرعتها بـ١٠٠كم/ في الساعة أَحيَّانًا؟!

من الذي ركبك بهذا الإحكام؛ فالعين في المحجر، والقلب في القفص الصدري، والمخ في الجمجمة، والنخاع في العمود الفقري، من الذي جعل داخل جسمك ثلاث شبكات ليس لها مثيل على وجه الأرض، شبكة الأعصاب، والأوعية الدموية، والمسالك البولية.

أتعلم أنه كلما مرَّت عليك ثانية واحدة تموت فيك ٢.٥مليون كرة دم حمراء، ويولد لك مثلها بإذن من تتجدد؟ إن الإنسان تموت فيه كل ثانية حوالي ١٢٥ مليون خلية؛ فلولا أن الله يخلق له بدلها لتآكل كما يتآكل الميت في قبره... أعطي الله جسدك خاصية الترميم، تسقط شعرات فتنمو غيرها وهكذا.

من الذي علم الرضيع المصَّ، من هداه إلى التقام ثدي أمه، يولد طفل من كل ٦٠٠ ألف طفل بالعالم ليس لديه منعكس المصِّ[1] يموت جوعًا لأنه لا يمكنه الرضاعة كسائر الأطفال.

---

(1) الفعل المنعكس هو حركة تلقائية لا شُعورية تنشأ استجابةً لمؤثر حسي كوخز الدبوس للجلد إذ ينتفض الإنسان قبل أن يفكر.

ماذا لو...

أتدري ماذا لو نما جسمك بغير اتزان؟ لرأيتَ عينًا أكبر من الأخرى ورِجلًا أطول من أُختها وأصابع غير منتظمة.

أتدري أنه لو انْسَدَّتْ القناة الدمعية؟ لاستحالت حياتك جحيمًا لا يطاق؟ أما لو اختل مركز توازن السوائل فيك فساعتها لن تشعر أبدًا بالعطش وبالتالي قد يُشرف الجسم على الهلاك وأنت لا تشعر بالعطش فتموت، وحتى لا تصل لهذه الحال فعليك أن تواصل شرب الماء باستمرار وتصير حياتك بين زجاجات الماء والخلاء!!

ها هو رجل يدفع لأحد موظفيه عشرة آلاف ليرة في الشهر، تدري مقابل ماذا، إن هذا الرجل مصاب بشلل في عضلة المستقيم فلا يمكنه أن يخرج فضلاته وبرازه بنفسه فلا بد من إنسان يستعمل آلة معينة يُنْزِلُ له النجاسات!!.

حبيبي في الله... كم تدفع أنت شكرًا لله مقابل نِعمة أنك تتردد على الخلاء، لا يَطَّلِع على عورتِكَ أحدٌ، لا يُسمع لك صوت ولا يُشم لك ريح؟..ألا فقل الحمد لله.

ها هو هرمون النمو الذي تفرزه الغدة النخامية مؤلف من (١٨٨) حمضًا أمينيًا نسبته الطبيعية (١٠) ميكرو جرام لكل لتر من الدم لو زادت هذه النسبة لحدثت العملقة ولو قَلَّتْ لكانت القزامة؛ فسبحان الذي خلق كل شيء بقدر.

أما الهرمون الجنسي فنصف جرام منه فقط تتسبب في أمارات الرجولة التي أنت عليها، وإن خللًا يسيرًا في هذه النسبة لا قدر الله يُسبب أعراضًا تدمر رجولتك.

أيها المسكين!! لو ضاق شريانك التاجي مليمتر واحد فقط لدخلت في متاهات لا قِبَلَ لك بها، لو أن إنسانًا مُصَاب بفيروس الكبد الوبائي يعمل بأحد المطاعم ولم ينظف ما تحت أظافره جيدًا. من الذي يضمن لك أنك لست حاملًا لهذا المرض وقد أكلت في هذا المطعم وجبة قد أعدها هذا المصاب؟

يا أخي!! أتظن أنك لو تَعَطَّلت فيك غُدَّة واحدة عن عملها هل بإمكانك أن تنام الليل؟ إنك لا تستطيع أن تبتلع لقمة جافة لولا هذا اللعاب.

أتدري أنه لو نقص مُركَّب الحديد في جسمك لتعرضت لضعف عام، وكسل وخمول، وصداع بالرأس، وطنين بالأُذن، وضعف الأظافر، وتقصف الشعر، و...، و...، و...

من الذي أوجد هذا التوازن العجيب بين ضغط الهواء الخارجي عليك وبين ضغط جسمك من الداخل؟ ألا ترى إلى رُوَّاد الفَضاء يَرْتَدُون ملابس خاصة تكلفهم الملايين تُوفر لهم الضغط المناسب وإلا انفجرت أوعيتهم الدموية.

هل تَصورت نفسك بلا عُنق؟ كم أَنت دَميم مخيف؟

هل سألت نفسك

كم شاب في مثل عُمرك يتمنى أن لومشي على قدميه... لا يستطيع؟

كم شاب في مثل سِنك يَتغَذى على المحَالِيل؟

ها هو أحد الشباب استلقى على سرير المرض في إحدى المستشفيات وقد أَحضَرت له أمه طعامه الذي أُعد بالخَلَّاط عِدة مرات ثم جعلته على ظهره ووضعت قُمعًا في فمه وبدأت تُطعِمَه بِحذر شَديد.

إني أنصحك بزيارة المرضى.. تسمع الآهات، وترى العجائب، وتعرف نعمة الصحة.

في معهد الأورام ترى من تورمت عينه وانتفخت حتى صارت بحجم رأسه، وآخر إن أراد أن ينظر إليك ضغط على شفته المتورمة ليراك، وثالث تورمت خصيتاه كالشمامتين قل لي بربك كيف ينام وعلى أي هيئة يستلقى، قُم بزيارة قسم الحروق... قُم بزيارة قسم الكسور... قُم بزيارة قسم السرطانات.

تَردد على هؤلاء الذين ينتظرون الموت مكانهم.. أحد الشباب مَرَّ بطريق أثناء مشاجرة، استعمل فيها بعض المجرمين حامض الكبريتيك المركز (ماء النار) فسقطت على وجهه قطرات، هذا الشاب اختفت معالم وجهه بالكُلية، انصهر الوجه تمامًا، وضاعت ملامحه، احتاج الأطباء إلى كيس رحم يوضع على وجهه لِيُعَاد رسم ملامحه من جديد، ليُشق مكان للعين وفتحتين للأنف وآخر للفم... فتأمل.

ألا تَرى أنه لولا نعمة القراءة لما كُنت مُمسكًا بهذا الكتاب الآن، ولربما دَخلتَ حقل أَلغَام وأَنت لا تَدري؟

ومن نعم الله عليك أنت أنه عَلَّم فلانًا الطبيب صنعة الطب كي يصف لك دواءً.

ومن نعم الله عليك أنه علَّم كل سائق أقلك إلى مكان ما مهنة القيادة.

ومن نعمه عليك أنه علَّم فلانًا النجارة، وعلم فلانًا النقاشة وفلانًا، السباكة، وفلانًا وفلانًا... لتنتفع أنت بمهاراتهم فهذه نِعَمٌ قَلَّ مَنْ يَنْتَبِه إليها ويشكر الله عليها.

واأسفاااااه إنها جواهر!!

يحكون قصة فرنسية أن رَجلًا ضل في الصحراء، وفقد طعامه وشرابه، وأشرف على الهلاك، فرأى بِركة ماء؛ فشرب وارتوى وحانت منه التفاتة؛ فلمح كِيسًا فطمع أن يكون فيه ثروة من الجواهر واللآلِيء والدُّرر، فصاح وَاأَسَفَاه هذه جواهر. نَعَمْ إِنَّ الإشارة واضحة قريبة إن كيس جواهر يُقدر بالمليارات لا قيمة له حين لا تجد رغيف الخبز وشربة الماء.

وفي أثناء الحرب العالمية كان رغيف الخبز يباع بالقطع الذهبية وفي تواريخ المجاعات تُطالع أن الرَّغيف كان يُباع بالعَقار!!!.

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

إنك لا تَدري ما الذي يحدث في هذا الكون العظيم لتَنْبُت ثَمرة فاكهة واحدة، تذهب إلى السوق وتشتري تُفاحًا أو عِنبًا وتعطي البائع جنيهات تحسبها قيمة العنب أو التفاح، أنت واهم قطعًا وإلا فما في الأرض مبلغ من المال يمكن أن يصنع تفاحة واحدة، إنما تدفع نظير خدمات من نقل الفاكهة إليك.

إنك أيها المؤمن حين تتناول طعامك تستحضر نعمة الله عليك فيه، تذكر طعام أهل الجنة وطعام أهل النار، وتستحضر إخوانك الجوعى هنا وهناك وتنظر بعين البصيرة إلى طعامك هذا، كيف سِيقَ إليك من بلاد بعيدة، تستحضر نعمة أن الله حرَّم علينا الدم فهو نجس لا يؤكل باتفاق العلماء، وهو يحمل سُمومًا كثيرة ومُركبات ضَارة عسيرة الهضم.

وقد لاحظ الدارسون أن القبائل التي تستمرئ أكل لحوم السباع والجوارح التي حرم الإسلام تناولها تصاب بنوع من الشراسة، ويصبح طبعها العنف والميل لسفك الدماء ولو بغير سبب، كما تصاب بالفوضى الجنسية إذ أن الآكل تنتقل إليه بعض صفات المأكول، وهذه السباع تفرز أجسامها هُرمُونات تسهل لها القنص والافتراس حتى لو كانت محبوسة في الأقفاص.

ولعل أكل الخنزير أحد أسباب انعدام الغيرة عند الغربيين؛ فترى عندهم ما ترى، وما وباء (السارس) الذي اجتاح الصين وجنوب شرق آسيا إلا بسبب تناولهم للحوم الكلاب والسنانير؛ فشنوا حملات قتل

الحيوانات وإلغاء تراخيص التجارة فيها؛ للحد من الوباء الذي اجتاحهم فعجزوا عنه(١).

ومن نعم الله عليك أن خلق لك شفتين: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البَلَد: ٨-٩]، فلو خلق الله تعالى الإنسان بلا شفتين لأصبح منظره مخيفًا مقززًا، ولبرزت أسنانه، ولَسَالَ لُعَابُه وتساقط من فمه، كما جعل الله للشفتين القدرة على إتمام مخارج الحروف، هيا افتح شفتيك ولا تطبقهما وحاول أن تنطق كلمة (بومة) مثلًا أو (فوزي) أو (مبرور)، ومن حكمته سبحانه أن جعل الشفتين لحمًا صرفًا لا عَظمَ فيه؛ لِيَتَمَكَّن بهما من مَصِ الشراب وليسهل فتحهما وطبقهما، وجعل الفك السفلي هو المتحرك لا العلوي فهذا هو الأيسر والأليق.

---

(١) وقد حكي لي رجل أعمال مسلم أن الصينيين كانوا يتعجبون ويسخرون من الأخوة حين يسجدون لله في الصلاة وقال قائلهم: «الشعب الصيني شعب قوي لا يحتاج إلى إله»!! ﴿قُتِلَ الْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عَبَس: ١٧].